

سبينوزا الشاب حول الشكوكية، الحقيقة، والمنهج

ترجمة: جوزيف بوشرة

The Young Spinoza on Scepticism, Truth, and Method

By Valteri Viljanen

Canadian Journal of Philosophy (2019), 1–13



سبينوزا الشاب حول الشكوكية، الحقيقة، والمنهج

فالتري فيليانين

الخلاصة

تعرض هذه الورقة تأويلاً جديداً لمنهج سبينوزا الشاب في التمييز بين الأفكار الصحيحة والأفكار الباطلة، ما يبرهن على أنّ جوابه على الشكّك ليس ساقطاً. هذا المنهج يجمع التحليل والتّركيب معاً كالآتي: إنّ نستطيع أن نقول عن موضوع فكرة (أ) آية أشياء بسيطةٍ تولّفه، (ب) كيف يمكن بناؤه من العناصر البسيطة، و(ج) ما هي السمّات التي يملكها بعد تكوينه، فسيكون الشكّ في الموضوع بلا فائدةٍ. كذلك تقترح الورقة طريقة ارتباط هذه المنهجية بأنطولوجيا كتاب علم الأخلاق.

الكلمات المفتاحية: سبينوزا؛ ديكارت؛ إبستمولوجيا؛ الشكوكية؛ الحقيقة؛ العقلانية.

١. المقدمة

«وكما ينير النور نفسه والظلام معاً، كذلك تكون الحقيقة معيار [norma] نفسها ومعيار الباطل» (E2p43s):¹ أو كقول سبينوزا «Spinoza» في مراسلاته «إنّ الحقيقة هي مؤشّر [index] نفسها ومؤشّر الخطأ» (Ep76; G IV, 320). وكما يقول في موضعٍ آخر «لا تحتاج الحقيقة لأية علامة [signo]» (TIE§ 36; G II, 15).² بناءً على اقتضاب هذه المزاعم الماثورة باستطاعتنا فهم سبب اعتبار بعض الأكاديميين كمثل إدوين كيرلي «Edwin Curley» (1988, 65) أنّ سبينوزا «لم يأخذ الشكوكية الديكارتية على محمل الجدّ»³ ويكتب جونثان بينيت «Jonathan Bennett» (1984, 176) بعد عرضٍ موجزٍ عن معالجة سبينوزا لطبيعة الأفكار التامة في رسالةٍ في تصويب العقل معلقاً حولها: «ليست معالجةً جيّدةً. ولحسن الحظ، إنّ الاهتمام بالشكوكية الغالب على هذا الكتاب هو شبه غائبٍ عن علم الأخلاق». وكذلك يكتب هارولد يواكيم «Harold Joachim» (1940, 197) متأسّفاً «أنّ محاولتي لاستخراج من عرض سبينوزا في الرسالة مزاعم

¹ أستعمل ترجمات كيرلي (أختصرها بحرف C)، كذلك أستعمل المختصرات الآتية للإشارة إلى أقسام كتاب علم الأخلاق «Ethics» (والذي أختصره بحرف E)، وهي: app = لازمة «appendix»، d = تعريف «definition»، p = قضية «proposition»، s = حاشية «scholium». على سبيل المثال إنّ «E1p8s2» يشير إلى الحاشية الثانية من القضية الرابعة في الجزء الأول من علم الأخلاق. كذلك أختصر أعمال سبينوزا الأخرى بالآتي: Ep = المراسلات «Correspondence»، KV = رسالة موجزة في الله، الإنسان، ورفاهيته «Short Treatise on God, Man and His Well-being»، TIE = رسالة في تصويب العقل «Treatise on the Emendation of the Intellect». ويمكن العثور على قائمةٍ بمختصراتٍ أخرى في آخر الورقة قبل ثبت المصادر.

² قارن جملة «الحقيقة ستظهر نفسها كما ستظهر الخطأ» (KVII. 15: G I, 79).

³ قارن جملة «لا يعتبر سبينوزا الشكوكية أنّها شبحٌ ينتاب الفلسفة الأوروبية... وعلى الأرجح إنّ إبستمولوجيا سبينوزا الدوغمائية هي أبعد ما يكون عن شكوكية فلسفات القرن السابع عشر الجديدة» (Popkin 1979, 245).





هذا الأخير الأساسي حول الشك، والاستخلاص منها صياغةً جديدةً كاملةً لنظريته، انتهى باعترافٍ معلنٍ بالفشل.... لأنه حينما يُدقق في النظرية سيتبين أنها ليست نظريةً واحدةً متماسكةً إطلاقاً.⁴ لكن علاقة سبينوزا بالشكوكية لاقت اهتمامًا أكثر إيجابيةً أيضًا. إذ باستطاعة المرء أن يعثر في أعماله، وقد عثرَ فيها، على العديد من الأجوبة المختلفة للتحدي الشكوكي. أعتقد أن ويليس دوني «Willis Doney» محقٌّ في قوله (1971, 617): «لا يعبر سبينوزا في علم الأخلاق حصراً عن اهتمامه بالشكوكية وبالاحتمالية التي تصوّرها ديكارت «Descartes» والتي تفيد بأن الأفكار الواضحة والتميّزة أو حتى التصوّرات يمكنها ألا تكون صحيحةً. وليس ثمة من سبب يدعو إلى ذلك، لأن سبينوزا كان من الذين يعتقدون أنه إذا اعتمدنا في تفكيرنا على الترتيب الصحيح، كما في علم الأخلاق فلن ينشأ الشك.» ومؤخرًا حاجج مايكل ديلا روكا «Michael Della Rocca» (2007) أن حجة سبينوزا ضد الشكوكية مبنية على التزامه بمبدأ العلة الكافية وعلى إنكار التفرعات غير القابلة للتفسير التي تتضمنها (على سبيل المثال وضوح وتمييز فكرة، واليقين). إن أحدث تأويل لجواب سبينوزا على الشكّ، والذي يركّز على علم الأخلاق، وضعه دومينيك بيرلر «Dominik Perler» (2018)، إذ بحسب الأخير يحتوي الكتاب على دمج ما بين نظريتي تماسك وتطابق الحقيقة ما يشير إلى أنه لا يمكن الدفاع عن موقف الشكّ. أما إذا ألقينا نظرةً على تلك القضية في علم الأخلاق (E2p43) مركّزين مباشرةً على الشكوكية، فسوف نجد المزمع المحوري لبرهانها: «من يمتلك فكرةً صحيحةً يعرف في الوقت نفسه أنه يمتلك فكرةً صحيحةً، ولا يستطيع الشك في صدقها،» وذلك اعتمادًا على المعرفة اللامتناهية لله وعلى نظرية أفكار الأفكار. هكذا نجد الحجة متضمنةً إلى حدٍّ معيّن في نظام سبينوزا الفلسفيّ التّامّ.

في هذه الورقة أعين الطريقة التي يعتبر من خلالها سبينوزا الشاب في رسالةٍ في تصويب العقل أن فكرته حول الحقيقة والمنهج تجيز له تبييد الشكوك الشكوكية. أعتقد أن التركيز على هذا العمل الأوّلي لسبينوزا هو مسوّغٌ ليس فقط لأنه يقدّم معالجة كاتبه الأكثر توسّعًا في مسألة الشكوكية بل أيضًا لأن حججه يمكن تقييمها من دون اتّخاذ موقفٍ على أساس النّسق الفلسفيّ العامّ الذي طوّره سبينوزا لاحقًا. وعلى الرّغم من أن النهج الحجّاجي الذي اعتمده سبينوزا مختلفٌ عن نهج التأمّل الثالث⁵ المشهور، أو الشّهير، فسأبين أن موقف الفيلسوف متجدّدٌ في بعض أوجه الفكر الديكارتّي المعبر عنها في كتاب القواعد «Regulae». إن

⁴ ليست الأسباب القائمة خلف هذا الحكم سهلةً على الملاحظة. لذا إن كنت قد فهمت جيدًا مقصد يواكيم (196, 1940) فإن المشكلة الأساسية عنده تكمن في أن سبينوزا يخلط بين حالة «رجل العلم أو الفيلسوف» وحالة «الفكر المدرك أو المتخيل غير المتفكر» ذي «الشك ما دون العقلاني». بيد أنني لم أعر على دليلٍ نصّي على هذا التمييز. كما ثمة مسألة نقدية أخرى مهمة عنده وهي أن سبينوزا «يتغاضى عن... الخاصية الإيجابية للشك بوصفه شيئًا يتضمّن تأملًا في البدائل» (197)؛ لكنني لا أرى سببًا يدعوننا إلى اعتماد هذا الرأي القائل بالشك. على أية حال حتى إن كانت ملاحظات يواكيم النقدية مبرهنهً فلا أعتقد أنها تجيز خلاصةً سلبيةً عامةً بشأن نظرية سبينوزا بكاملها. وعمومًا أعتبر أن اتّجاه يواكيم إلى قراءة علم الأخلاق في سياق الرسالة أمرٌ إشكاليٌّ؛ وغالبًا ما يبدو صعبًا ملاحظة إلى أي مدى يقوم نقده على قراءة الكتابين بوصفهما متزامنين.

⁵ لشرح عن المعالم المعادية للديكارتية «anti-Cartesian» في جواب سبينوزا على الشكّ انظر (Bolton 1985).





فضل ديكارت في قواعده على فكر سبينوزا استجلب حتمًا بعض الاهتمام في المجال الأكاديمي⁶؛ لكنني أعتقد أنه لا يزال ثمة مجالٌ واسعٌ لمناقشة تأثر سبينوزا الشاب في الرسالة بعمل الفيلسوف السابق الأولي. إذ عبر ملاحظة مدى تطابق الرسالة مع القواعد سيساعدنا هذا الأمر وحده على التوصل إلى صلب ورقتي، وهو تأويلٌ لنظرية سبينوزا الشاب في التمييز بين الأفكار الصحيحة والأفكار الباطلة. ومؤخرًا لاقت هذا الجانب من فكر سبينوزا اهتمامًا متجددًا. وعلى الرغم من أنني أجد أن بعض المزاعم المقدمة صحيحة، وهذا أمرٌ متوقعٌ، فبحسب معلوماتي إن تأويلي هو محدثٌ وغير مسبوقٍ إليه في هذا المجال، كما إنه أصيلٌ في توجيهه الأساسي⁷. وتحديدًا يمكنني هذا التأويل الجديد من الدفاع عن سبينوزا أمام أولئك المؤولين الذين يدعون أن جوابه على الشكك هو إخفاقٌ غريبٌ. علاوةً على ذلك إن تفسيري يسمح لي بتسليط الضوء على الطريقة التي ترتبط فيها منهجية الرسالة بأنطولوجيا علم الأخلاق.

وستتوضح هذه الورقة مقسمةً كالآتي: في القسم الثاني، سأفسر ما هو موضوع الأفكار التامة عند سبينوزا، أخذًا بعين الاعتبار أن هذه هي الخطوة الأولى التي لا يمكن الاستغناء عنها في لحظ عمّا تقوم عليه الحقيقة والبطلان. وفي القسم الثالث، سأحاجج أن صلب منهج سبينوزا في تمييز الأفكار الصحيحة عن الأفكار الباطلة يشكّله دمجٌ فريدٌ ما بين التحليل والتركيب. أما في القسم الرابع، فسأبين كيف يجب سبينوزا بواسطة هذا المنهج على التحدي الشكوكي، وفي هذا الإطار أرى أن مقارنة طريقة تفكيره بتفكير كنت «Kant» حول الاستعراف المكاني أمرٌ جريءٌ ومفيدٌ، كما سأقترح في هذا القسم طريقةً يرتبط فيها جواب سبينوزا على الشكك بأنطولوجيته.

⁶ وقد لاحظ أصلاً إدوين كيرلي (Curly, 1994) (C, 4) أنه «تستدعي رسالة في تصويب العقل مقارنتها بقواعد ديكارت،» كذلك سلط جان لوك ماريون (Jean-Luc Marion, 1994, 144-145) الضوء على العديد من التشابهات بين هذين العملين. وأود أن أشكر الحكام المجهولين للفت انتباهي على هذا الموضوع.

⁷ ثمة تفسيران حديثان مهمان لنظرية الحقيقة في الرسالة. بحسب تأويل ألان نيلسون (Alan Nelson 2015) إن فكرة الله هي نقطة الانطلاق لنظرية سبينوزا الأولية عن الحقيقة، وأية فكرة صحيحة «يتم تصورها بوضوح وتميزٍ بواسطة الله لأنها جزءٌ من عقل الله» (63). تعرض الرسالة بعض المؤشرات على هذا النهج في التفكير (انظر بخاصة TIES 73; G II, 28). وهو الذي أصبح أكثر وضوحًا في علم الأخلاق، ولأن نقطة الانطلاق المباشرة التي تبدأ من فكرة الله الصحيحة (المزعومة) لن تقنع أي شككٍ، لا أعتقد أن هذه هي المقاربة التي يجب اتخاذها؛ وكما يلاحظ جون موريسون (John Morrison 2015, 77-78) أن هذه المقاربة تواجه بعض المشاكل النصية البارزة. أما التأويل الآخر فيضعه موريسون نفسه الذي يجادل بأن نظرية الحقيقة عند سبينوزا مبنية على فكرة ماهيتنا الفطرية، لكن الدليل النصي الأكثر إقناعًا لهذا الرأي موجودٌ في علم الأخلاق لا في الرسالة (انظر Morrison 2015, 89). زد على ذلك أنني لا أعتقد أنه ينبغي علينا إلزام أنفسنا بأي رأي يتعلّق بما يعنيه سبينوزا في قوله «فكرة صحيحة معطاة» (TIE § 38; G II, 16)، ويتمّ تقبلها لأنّ سبينوزا لا يخبرنا عمّا تكون في الواقع، وهذا ما سأفصّله لاحقًا (انظر الحاشية 11). ومن التأويلات الأقدم أعتقد أن علينا ذكر تأويل ألكسندر ماتيرون «Alexandre Matheron»؛ ففي حين أنني أوافق على طرحه الأساس القائل بأنه «علينا أن نستنتج منذ اللحظة الأولى أن فكرتنا الصحيحة تتضمن بنفسها وبمستواها الخاص اليقين» (Matheron 1994, 86؛ ولمقاربة شبيهة به انظر Sangiacomo 2015, 345)، يشدّد ماتيرون على تطابق ما يقوله سبينوزا الرسالة حول اليقين مع عقيدة أفكار الأفكار الموجودة في علم الأخلاق. وعلى حدّ علمي لا يناقش ماتيرون سؤالي الأساسي المرتبط بالحقيقة: ما الذي يجعل من الفكرة فكرةً صحيحةً في الأساس «بمستواها الخاص»؟ وختامًا أوافق دانيال شنايدر (Daniel Schneider 2016) أن سبينوزا فيلسوفٌ منهجيٌّ إبستمولوجيٌّ «epistemological methodist»؛ وما أرغب في إظهاره هو التالي: كيف اعتبر سبينوزا المبكر أنه باستطاعتنا تمييز الأفكار الواضحة والمتميزة عن الأفكار الغامضة والمهمة.





2. سبينوزا حول موضوع الأفكار التامة

في علم الاخلاق يقيم سبينوزا تمييزاً ثلاثياً بين أنواعٍ مختلفةٍ من المعرفة. أولاً ثمّة أفكار التخيل التي تكوّنها الحواسّ والعلامات، وخاصّيتها غير تامة. والثّوع الثّاني من المعرفة، وهو العقل الذي نستحصل عليه من «المفاهيم المشتركة والأفكار التامة عن سمات الأشياء» (E2p40s2). وأخيراً ثمّة المعرفة الحدسيّة التي «تنبع من الفكرة التامة عن الماهيّة الصّوريّة لبعض صفات الله وصولاً إلى المعرفة التامة لماهية الأشياء [الصّوريّة (نسخة NS)]» (E2p40s2). وكما هو معروفٌ إنّ هذا النّوع الأعلى من المعرفة يشكّل ضرباً من اللّغز، ويكفي هنا ملاحظة أنّه معنيٌّ بماهيّات الأشياء التي تنبع من ماهيّة الله أو الطبيعة، في حين أنّ العقل معنيٌّ (شبه معنيٌّ) بسمات الأشياء. ويتشابه هذا التّصنيف مع التّصنيف الموجود في الرّسالة الذي يقوم على تعيين الأفكار التي تصلنا عبر التقارير، والعلامات، والتجربة الحسيّة، كإدراكاتٍ من المستويات المتدنيّة. أمّا النّوع الأعلى الثّاني من المعرفة فهو يتمثّل بطريقةٍ تختلف عن تلك التي يُعثر عليها في علم الأخلاق:

ثمّة الإدراك الذي نمتلكه حينما تُستنتج ماهيّة شيءٍ من شيءٍ آخر، ولكن ليس على نحو تامّ. ويتمّ هذا إمّا عندما نستنتج السّبب من نتيجةٍ معيّنةٍ إمّا عندما يُستنتج شيءٌ من شيءٍ كليّ، الأمر الذي عادةً ما تصحبه سمّةٌ معيّنة. (TIE § 19; G II, 10)

وعادةً ما يكون سبينوزا متبايناً بعض الشيء حينما يرتبط الأمر بمنزلة هذا النّوع من المعرفة. على الرّغم من أنّه يقرّ «أنّنا نستطيع على نحو معيّن القول بامتلاكنا فكرةً عن الشّيء، وباستطاعتنا أيضاً القيام باستنتاجاتٍ من دون خطر الوقوع في الخطأ»، ويضيف سبينوزا: «على الرّغم من ذلك لن تكون وسيلةً كافيةً بنفسها أمام سعينا إلى الكمال» (TIE § 28; G II, 13). وحده الحال الأعلى من المعرفة، أي «الإدراك الذي نمتلكه عندما يُدرك الشّيء عبر ماهيّته وحدها أو عبر معرفة علّته القريبة» (TIE § 19; G II, 10)، «يستوعب ماهيّة الشّيء التامة، وذلك من دون خطر الوقوع في الخطأ. لذلك هذا ما علينا استعماله أساساً» (TIE § 29; G II, 13). إذن على الرّغم من أنّ هذا التّصنيف يختلف بشكلٍ ملحوظٍ عن التّصنيف المطروح في علم الأخلاق لا يجب علينا أن نغفل أنّ سبينوزا لا يزال يشدّد هنا على دور الماهيّات في تكوين المعرفة التامة. إذ تتمحور الأفكار الواضحة والتميّزة أولاً وأخيراً حول ماهيّات الأشياء.

إذن ماذا يقصد سبينوزا بالماهية؟ يبدو أنّ الجواب الأساس على هذا السّؤال سيبقى ثابتاً خلال مسيرته الفلسفيّة.⁸ وثمّة صياغةٌ أوليّةٌ وموجزةٌ عن الجواب تتمثّل بالآتي:

اعلم أنّ الطّبيعة المحدّدة هي التي يكون الشّيء من خلالها على نحو ما هو عليه، والذي لا يمكن نزعها عنها من دون تدميره، كقولك إنّ ماهية جبلٍ مشروطةٌ في امتلاكه وادياً، أو إنّ ماهية جبلٍ تكمن في أن يكون لديه وادياً. (KVI.1; C, 61; G I, 15)

⁸ للمزيد حول هذا الموضوع، انظر (Viljanen 2015).



أما التّعريف المشهور الذي نعثر عليه في علم الأخلاق فهو أكثر تعقيداً ولكنّه لا يزال متماشياً مع الصياغة السابقة:

أقول إنّ ما ينتهي إلى ماهيّة الشّيء، مهما يكن، هو ذلك الذي حينما يُعطى، يصبح الشّيء مفترضاً بالضرورة [أيضاً (نسخة NS)]، وحينما يُزال، يُزال الشّيء بالضرورة [أيضاً (نسخة NS)]؛ أو ذلك الذي لا يمكن للشّيء أن يوجد أو أن يُتصوّر من دونه، وهو كذلك الذي لا يمكنه أن يوجد أو أن يُتصوّر من دون الشّيء. (E2d2)

أعتبر أنّ سبينوزا يقصد من خلال ما تقدّم أنّ الماهيّة هي ما تجعل من الشّيء على نحو ما هو عليه، أي إنّها تفرّده. ولدى الماهيات مهمّاتٌ أخرى أيضاً؛ أشهرها أنّها تشكّل مصادر الفعاليّة السببيّة (انظر E1p34, 1p36, 3p7d)، ولكنّ حسبما أرى لا تشكّل هذه المهمّات أية قيمة في ما يخصّ فهم القراءات الإستمولوجيّة للرّسالة.

لا أعتقد أنّ اعتبار الماهيّة عند سبينوزا ميزة من الواقع التي تحدّد طريقةً معيّنةً للكينونة، والتي تكوّن صلب الشّيء أو تؤلّفه، هو موضعُ جدالٍ تأويليٍّ. فالدّرب الاستعرافيّ للماهيّة يمرّ عبر التّعريفات، حيث يعبر التّعريف عن ماهيّة معيّنة؛ إنّهُ شرحٌ متكاملٌ لماهيّة الشّيء، أو على حدّ تعبير سبينوزا، إنّهُ تصوّر الشّيء (TIE§ 96; G II, 35). هنا سبينوزا يسير في تفكيره على خطى فلسفيّة تقليديّة، وذلك مقارنةً على سبيل المثال بالأكويينيّ حينما يقول الأخير «بأنّ الشّيء معقولٌ فقط عبر تعريفه وماهيّته» (SW, 35). واختصاراً يعتبر سبينوزا أنّ موضوعات الأفكار المعنيّة بالأشياء هي ماهياتٌ تحدّد الخاصيّة الأساسيّة لكينونة تلك الأشياء، ويمكن تصوّرها من خلال التعريفات.⁹

3. سبينوزا حول صحّة الأفكار وبطلانها

يمكن القول تقريباً أنّه بالنسبة لسبينوزا الشّاب ثمة طريقتان مختلفتان لتكوين المعرفة: الطّريقة العقليّة، عبر تفحص ماهيات الأشياء، والطّريقة التخيّليّة عبر تكوين أفكارٍ عن الأشياء في وجودها الحاليّ، وبأية حالة يؤثّران علينا.¹⁰ على الرّغم من أنّ أفكار التخيّل مفيدةٌ للحياة العمليّة، فهي مريبةٌ «uncertain» وغير تامّة إستمولوجياً، لأنّها لا تتمحور حول ميزات الأشياء الأساسيّة، التّأسيسيّة، أو الماهيويّة (TIE§§ 19-20, 26-27; G II, 10-11, 12-13). إنّ غاية النّقاش المنهجيّ المتكلف في الرّسالة هو لحظ طبيعة تكوين المعرفة التامة القائمة بوساطة الماهيات. واستناداً على الرّأي القائل بأنّ لدى الحقيقة علامتها أو معيارها الخاصّ، يؤكّد

⁹ وعلى الرّغم من تباين وسائلهما واختلاف منطلقاهما، يشدّد مايكل ديلا روكّا (Michael Della Rocca 1996, ch. 5; 2007, 863) وجون موريسون (John Morrison 2015, 69-71) أيضاً على ما تلقّيه إستمولوجيا سبينوزا من أهميّة على استعراف ماهيات الأشياء.

¹⁰ صحيحٌ أنّ سبينوزا يتفحص عقلياً وجود الأشياء، ولكنّ في الواقع يقوم تفحصه على الطّباع أيضاً (أو على الماهيات): «أعتبر الشّيء مستحيلاً حينما تشير طبيعته إلى أنّ وجودها يحتوي على تناقضٍ؛ وأعتبر الشّيء ضرورياً حينما تشير طبيعته إلى أنّ عدم وجودها يحتوي على تناقضٍ؛ وأعتبر الشّيء ممكناً حينما لا يشير وجوده، وذلك من ضمن طبيعته، إلى تناقضٍ إمّا لوجوده إمّا لعدم وجوده» (TIE§ 53; G II, 19-20).





سبينوزا صراحةً أنه لدينا فكرةً صحيحة، وعبر تفحصنا إيّاها نستطيع لحظ طبيعة فهمنا ولحظ معيار الحقيقة الصحيح أيضًا. بمعنى آخر إنَّ المنهج هو معرفةٌ تفكّريّةٌ، أي إنّه فكرةٌ عن فكرةٍ (TIE§§ 37_38; G II, 15_16). إنّما ماذا يعني ذلك تحديدًا؟ وكيف نستطيع التأكّد بامتلاكنا فكرةً صحيحةً؟ ليس على المرء أن يكون شكّاكًا لكي يربكه الأمر.

إنّ جواب سبينوزا على هذا السؤال مستندٌ على الطّروحات الديكارتية، وليس مبنياً على أفكار ديكارت المطروحة في التأمّل الثالث. يحتاج سبينوزا كالاتي: لدينا أفكارٌ،¹¹ لأنّ باستطاعة أذهاننا تكوينها،¹² وكما يمكن اعتبار أيدينا أدواتٍ أعطتنا إيّاها الطبيعة، والتي نستطيع بوساطتها العمل على مختلف أنواع الموادّ وصنع أدواتٍ مفيدةٍ، كذلك فإنّ قدرة فكرنا (أي قدرته في تكوين الأفكار) يمكن اعتبارها أداةً فطريّةً (TIE) (G II, 13-14; § 30-31). باستطاعتنا توجيه فكرنا نحو فكرةٍ والتّركيز على ميزات موضوعها التأسيسيّة، بمعنى آخر التّركيز على ماهيّتها. وللاستعانة بمثّلٍ قدّمه سبينوزا، يمكن تعريف الدّائرة بأنّها رسمٌ يولّد حينما يُنبت طرفٌ من الخطّ ويتحرّك الطرف الآخر (TIE§ 96; G II, 35).¹³ وثمّة نوعٌ آخر من الأمثلة مختلفٌ كليًا، وهو مثّلٌ برهن على أهمّيّته في التّقليد الفلسفيّ، إنّه مثّلٌ حيوان الكميّير، وهو كيانٌ يمكن تعريفه على أنّه حيوانٌ ذو رأسٍ أسدٍ وجسمٍ شاةٍ وذنبٍ أفعى. إنّ فكرتنا عن المثل الأوّل صحيحةٌ أمّا عن الثّاني فهي باطلةٌ. ولكن كيف بإمكاننا معرفة هذا؟

ويضع المقطع التّالي الأطر العامّة التي يمكن من خلالها حلّ المشكلة، وقلّمًا يلقي هذا المقطع على حدّ معرفتي اهتمامًا في كتابات هذا المجال:

حينما يلحظ الفكر شيئًا مختلفًا ذا طبيعةً باطلةً، إذ يدرسه جيّدًا ويفهمه، ثمّ يستنبط منه ما يُستنبط تبعًا للنّظام المناسب، فسيبرز بطلانه بسهولةٍ. وإنّ يكن الشّيء المختلق صحيحٌ بطبيعته فحينما يلحظه الفكر ويفهمه، ثمّ يستنبط منه ما يُستنبط تبعًا للنّظام المناسب، فسيوفّق الفكر في سيره من دون أنْ تقاطعه عقباتٌ. وكما رأينا سابقًا أنّ العقل يستخدم نفسه حالاً لإبراز سخافة الشّيء المختلق الباطل وما استنبط منه. (TIE§ 61; G II, 24)؛ التّأكيد مضافٌ

سأعود لاحقًا إلى بعض الأجزاء المهمّة في هذا المقطع، لكن يمكننا الانطلاق من ملاحظة أنّ درس فكرةٍ يكون أحيانًا مسألةً بسيطةً جدًّا. بالنّسبة لسبينوزا إنّ بعض الأشياء كالامتداد والحركة بسيطةٌ جدًّا في أساسها،

¹¹ كما ذكرنا سابقًا يصحّح سبينوزا ميكرًا أنّ لدينا فكرةً صحيحةً يمكن استعمالها وسيلةً (TIE§ 39; G II, 35)، لكنّها صعبةٌ جدًّا على فهم ما يعنيه سبينوزا تحديدًا (وأقلّ ما يمكن قوله أنّها صعبةٌ). لمراجعة مفيدةٍ للمقاربات المختلفة حول هذه المشكلة (انظر Nelson 2015, 53-56). أعتقد أنّ الاستراتيجية التّأويليّة الأكثر حرصًا تكمن في التزام موقفٍ لا أدريّ في ما يخصّ طبيعة الفكرة التي يقصدها سبينوزا هنا والشروع في مناقشة الأفكار عمومًا ثمّ معرفة أسس الحكم على بعضها بأنّها أفكارٌ صادقةٌ.

¹² لا يعني ذلك أنّ أذهاننا ستكون ناشطةً كليًا في تكوين الأفكار، إنّما يشير إلى أنّ تكوين الأفكار لن يكون ممكنًا من دون مساهمة أذهاننا، وهذا طرّحُ اعتبره مثيّرًا للجدل. للمزيد حول الموضوع (انظر Viljanen 2014).

¹³ لا يتشارك سبينوزا مع هوبز «Hobbes» تفضيل التعريفات التكوينية «genetic definition» فقط (أي تلك التعريفات التي تقول كيف يتكوّن الشّيء؛ انظر بخاصّةً 81-82; EW I, 81-82)، بل يشاركه أيضًا هذا المثل الذي يستعمله هوبز في كتابه «في الجسم» (De Corpore I.6.13; EW I, 81-82). لمراجعة العلاقة بين هوبز وسبينوزا (انظر Gueroult 1974, 482-87 and Mancosu 1996, 98-99). (Corpore I.1.5 (I, 6).





ولا يمكن للأفكار القائمة حولها إلا أن تكون واضحةً ومتميّزةً. والسبب يعود إلى أنّ مثيلات هذه الأشياء «لن تُدرَكْ جزئيًّا بل ستدرَكْ إمَّا كاملةً إمَّا لن تُدرَكْ» (TIE § 63; G II, 24). هنا سبينوزا يفكّر تمامًا كديكارت في قواعده حيث يفصّل الأخير هذه الفكرة في القاعدة الثانية عشرة كالآتي:¹⁴

ولأننا ندرس الأشياء بقدر ما يدركها الفكر فقط، لا نطلق لفظة «البيسطة» إلا على الأشياء التي نعرفها بوضوح وتمييزٍ لدرجة أنه لا يمكن للفكر أن يجرّها إلى أشياءٍ أخرى أكثر تميّزًا. فالشكل، والامتداد، والحركة وغيرها... تُعدّ أشياءً من هذا النوع؛ وما تبقى نتصوّره وكأنّه مركّبٌ منها. (CSM I, 44؛ التأكيد مضافٌ)

هذه الطبائع البسيطة جليّةٌ بذاتها ولا تحتوي على أيّ بطلانٍ.... من البديهيّ أن نكون مخطئين إن أطلقنا حكمًا أننا نفتقر للمعرفة الكاملة بأيّ واحدةٍ من هذه الطبائع البسيطة. فإن كانت لدينا فكرةٌ عنها، وهو أمرٌ لا بدّ منه على افتراض أنّنا نقيم حكمًا بشأنها، فيستتبع ذلك أنّ لدينا معرفةً كاملةً عنها، وإلاّ لا يمكن القول عنها بأنّها بسيطةٌ، بل إنّها مركّبةٌ. (CSM I, 45؛ التأكيد مضافٌ)

هكذا تُشكّل أفكار الأشياء البسيطة وماهيّاتها انطلاقةً معرفيّةً مُحكّمةً في مسيرتيّ ديكارت وسبينوزا المُبكرتين.¹⁵ لا يحتوي هذا النوع من الأفكار إلاّ على شيءٍ موحّدٍ، وتاليًا/مّا أن يتلقّف المرء الأفكار بوضوحٍ وتمييزٍ إمّا ألاّ يتلقّفها إطلاقًا، وهذا أمرٌ محوريٌّ منهجيًّا.

ماذا عن الأشياء المركّبة؟ في النهاية نحن مهتمّون جدًّا بصحّة الأفكار القائمة حولها. والمسألة الأساس تكمن في أنّ ديكارت وسبينوزا الشّاب يعتبران الأفكار مركّبةً من الأشياء البسيطة (CSM I, 44; TIE § 68 [G II, 26]). يشدّد سبينوزا على أنّه «إذا قسمنا فكريًّا شيئًا مركّبًا من أشياءٍ أخرى إلى أجزائه البسيطة، وعائنا كلّ جزءٍ على حدا، فسيختفي الالتباس كلّهُ» (TIE § 64; G II, 24). ولا يوضّح سبينوزا ماذا يعني بكلامه هذا وكيف يُفترض أن يتمّ ذلك، لكنني أعتقد أنّ المثل اللّاحق المستوحى من أفكار الرّسالة يصوّر بوضوحٍ مقصد

¹⁴ ليس ثمة من دليلٍ قاطعٍ يشير إلى أنّ سبينوزا قرأ القواعد المنشور سنة 1684. ولكن نظرًا إلى أنّ الرّسالة تبدو في مواضع متباعدة ما كتبه ديكارت في عمله المبكر، فسيكون مذهلاً إن لم يكن سبينوزا مُطلّعًا أقلّه على طروحات الكتاب الأساسيّة. زد على ذلك أنّ نسخًا من المخطوطة كانت قد انتشرت في الدوائر الديكارتية الهولندية. (انظر Nelson 2015, 57-58; Nadler 1999, 166, 371; Joachim 1940, 95n2, 198n2). فعلاً ثمة إجماعٌ في هذه الأيام على أنّ سبينوزا قد اطّلع جيّدًا على القواعد؛ على سبيل المثال يسلمّ جان لوك ماريون «Jean-Luc Marion» (1994, 145) أنّ سبينوزا يتبنّى فكرة الطبائع البسيطة من القواعد.

¹⁵ يعترض باركنسون «G. H. R. Parkinson» (1954, 38) على هذا قائلاً بأنّ «الأفكار البسيطة كالحركة، الكمّ، وغيرهما لا تُؤكّد على شيءٍ»، وتاليًا «ليست صحيحةً ولا باطلةً». لكنّ هذا الاعتراض قائمٌ على فهمٍ مغلوّطٍ لتصوّر الحقيقة عند سبينوزا. صحيحٌ أنّه ثمة تقليدٌ قديمٌ يقول بأنّ الإنبات والإنكار أمران ضروريّان للصّحة والبطلان، ومرتبطان بالدمج والافصال. لذا تشير الصّحة والبطلان في هذا التقليد إلى التّركيب «Complexity» (التمثّل بالمرحلة الحديثة المبكرة، كما في كتاب منطوق بور رويال «Port-Royal Logique» لأرنو «Arnauld» ونيكول «Nicole»). لكنّ انتماء ديكارت إلى هذا التقليد أمرٌ مشكوكٌ به، أمّا سبينوزا فمن الواضح لدى أيّ قارئ أنّ الأخير لم يكن من ضمنه. فعلاً يبدو أنّ سبينوزا كان أحد الفلاسفة الأوائل الذين رأوا أنّ الإنبات لا يمكن فهمه على ضوء دمج الأفكار بصفتها موضوعاتٍ ومحمولاتٍ، لهذا السبب لا تعثر عنده على مشكلةٍ في اعتبار أنّ الفكرة البسيطة يمكنها أن تتضمنّ الإنبات.





الفيلسوف. تصوّر كرة «sphere»، إذ يمكن بناؤها عبر تدوير دائرة حول قطرها «diameter».¹⁶ إنّ الحركة شيءٌ بسيطٌ جداً لكنّ القول نفسه لا يطبّق على الدائرة لأنّها تفترض مسبقاً عملية توليدٍ: يصفها سبينوزا بأنّها صورةٌ تتولّد عبر تثبيت طرف خطّ وتحريك الطّرف الآخر (TIE § 96; G II, 35). وفي السّياق نفسه لا يطبّق ذلك القول على الخطّ؛ إذن كيف نستحصل على خطّ؟ والإجابة هي عبر تحريك نقطةٍ بشكلٍ مستقيم في الامتداد (TIE § 108; G II, 39). بهذه الطريقة ندرك أنّ الكرة يمكن بناؤها من ثلاثة أشياء بسيطةٍ تماماً تشكّل أساسها أيضاً، وهي: الامتداد، النّقطة، والحركة. بطبيعة الحال ينطبق الأمر نفسه على الدائرة المذكورة سابقاً، وهي أقلّ تركيباً من الكرة. وبدهيّاً يستند سبينوزا على التّصوّر الغاليليّ الديكارتيّ للطّبيعة ليؤكّد على أنّ هذا النوع من التّحليل الهندسيّ قابلٌ للتّطبيق في المبدأ على الأشياء الجسمانيّة كلّها بقطع النّظر عن مستوى تركيبها.¹⁷

وتبعاً لهذا المبدأ ألا يمكن أن يُحلّل الكميّر أيضاً إلى الامتداد وأشياء بسيطةٍ أخرى؟ ألا يمكنه أن يكون مجرد جسمٍ مركّبٍ جداً ذي ميزات تلك الحيوانات التي ندعوها أسوداً، شاء، وأفاعي؟ لا يقدّم لنا سبينوزا جواباً مباشراً على هذا السّؤال، لكنّ يمكن استخراج جوابٍ ممّا يقوله الأخير في الرّسالة. فمثل الكرة لا يخبرنا فقط عن أية أشياء بسيطةٍ يتألّف منها الشّيء المركّب، بل يشير بوضوح أيضاً إلى التّرابطات القائمة بين العناصر المختلفة. فهو يفسّر طريقة توليد شيءٍ مركّبٍ من أشياء بسيطةٍ: على سبيل المثال، يمكن بناء كرةٍ أولاً عبر تحريك نقطةٍ في الامتداد ما ينتج ثانياً الخطّ، ثمّ أخيراً عبر تدوير الدائرة المولّدة عنه.¹⁸ ويلاحظ سبينوزا أنّه عندما يكوّن الفكر تصوّراً عن شيءٍ فهو يلحظ «الوسائل والأسباب، وكيف ولماذا تمّ هذا الشّيء» (TIE § 62; G II, 24)؛ التّأكيد مضافاً). أضف إلى ذلك أنّه،

¹⁶ في (TIE § 72 (G II, 27)) نعرّ على الآتي: «... على سبيل المثال لتوليد تصوّر كرةٍ سأخلق السّبب الذي أشاؤه، كالآتي: قل أنّه ثمة نصف دائرة يدور حول محوره، وأنّ الكرة نتجت عن هذا الدوران. بطبيعة الحال هذه الفكرة صحيحة، وعلى الرّغم من أنّنا نعرف أنّه ليس ثمة من كرةٍ تتولّد على هذا النّحو في الطّبيعة فإنّ هذا الإدراك صحيحٌ، كما إنّه طريقةٌ سهلةٌ لتكوين تصوّر عن الكرة.»

¹⁷ هنا يشير سبينوزا إلى أنّ هذا النوع من التّحليل لن يطبّق على الأشياء جميعها. فعلاً يبدو أنّه ورث الكثير من التّفاؤليّة المعرفيّة «epistemic optimism» عن سابقه العظيم، فقد أعلن ديكارت في الجزء السّادس من حديث الطريقة «Discourse on the Method» أنّه «بعد مراجعتي عقلياً الأشياء كلّها التي تقدّمت إلى حواسي سأتجرأ في القول أنّي لم ألحظ شيئاً فيها لا يمكنني أن أشرحه بسهولةٍ وفقاً للمبادئ التي اكتشفتها» (CSMI, 144). في حين أنّ سبينوزا لا يقول أنّ ملاحظة بنية الأشياء المركّبة كمثال الجسم البشريّ ستكون أمراً سهلاً، لكنّه يبدو واثقاً أنّه ليس ثمة من سببٍ رئيسٍ للاعتقاد أنّ هذا الإنجاز الفدّ سيخرج عن نطاق منهجه، أي لا يمكن تحقيقه لأنّ معرفتنا بالطّبيعة تتطوّر.

¹⁸ هكذا تقدّم الرّسالة توضيحاً ذا قيمةٍ لما عرضه ديكارت موجزاً في الحديث (CSMI, 120)، وخاصّةً في ما ذكره الأخير في القاعدة الثّالثة التي تبعاً لها ينبغي علينا توجيه «أفكارنا على نحوٍ منظمٍ بدءاً بأبسط الموضوعات وأسهلها على المعرفة صعوداً شيئاً فشيئاً إلى بلوغ معرفة أكثر الموضوعات تركيباً، وبافتراض وجود بعض النّظام حتّى بين الأشياء التي لا تتتابع في نظامٍ طبيعيّ.» وكما حاجج مارتتيال غورو «Martial Gueroult» (1974, 482-86) أنّ ديكارت وعلى الرّغم من تشديده أيضاً على التّمودج الذي وضعه المهندسون فإنّ تأثير هوبز حتّى لا يزال حاضراً عنده: يصوّر هوبز في كتابه (De Corpore I, 1.6) التوليد قائلاً بأنّه «خطّ تصنعه حركةٌ نقطةٍ ومسطحٌ تصنعه حركةٌ خطّ» (EWI, 70). أضف إلى ذلك كما يوضح هوبز أنّ الانقسام إلى أشياء بسيطة (أو الانحلال «resolution») يمكن أن يسمّى المنهج التحليلي، في حين التّوليف من الأشياء البسيطة أشياء المركّبة يمكن أن يسمّى المنهج التركيبي (I, 66-70).





إذا انطلق المرء [أولاً] في تقصّي تلك الأشياء التي ينبغي عليه تقصّيها أولاً، وذلك من دون عقبة تقطع ترابطها¹⁹، وإذا عرف تحديد المشاكل بدقّة، ... فلن يكون لديه شيئاً سوى أكثر الأفكار يقيناً. (TIE § 80; G II, 30 التأكيد مضافاً)

ويكتب سبينوزا أنّ المرء يسمع أشياء رائعة أحياناً، حيث قد يرد على مسمعه مثلاً «أنّ الأشجار تتكلّم، والرّجال قد تحوّلوا في لحظة إلى حجارة أو إلى ينابيع» (TIE § 58; G II, 22) ودواليك. إنّ ردّ سبينوزا على أشباه هذا النوع من التقارير يتلخّص عمومًا كالآتي: إذا عايننا بانتباه كيف ولماذا تحدث أشياء كهذه، فسنلاحظ أنّنا لا نستطيع تكوين فكرة واضحة و متميّزة عن التّرابطات التي لا بدّ لها أن تكون متضمّنةً فيها مثلما لا نستطيع امتلاك فكرة واضحة و متميّزة عن اتّحاد مربعٍ بدائرة (TIE § 64; G II, 24-25).²⁰ هكذا إنّ واقعة أنّه ليس ثمة من تفسيرٍ توضيحيّ حول سبيل الوصول من الأشياء البسيطة إلى الكمّيّ يدلّ على أنّنا نتعامل مع كيانٍ مختلقٍ «feigned entity»، فلا يمكننا تكوين حوله فكرةً صحيحةً.²¹ أعتقد أنّ سبينوزا يشير تحديدًا إلى ذلك المقطع المذكور سابقًا حيث يصرّح بأنّ الفكر تتمّ مقاطعته عندما يدرس فكرةً مُختلفةً ببطالانٍ وما يستتبعها (TIE § 61; G II, 23-24). بمعنى آخر يحتوي الكمّيّ بحسب التّعريف التقليديّ على أفكارٍ مركّبةٍ جُمعت على نحو لا يمكن تحقيقه في إطار الطّبيعة الغاليلية الديكارتية. علاوةً على ذلك، ليس ثمة من ضمانةٍ أنّ ميزاتٍ كرأسٍ أسدٍ نافثٍ ناريًا يمكن تحليلها إلى أشياء بسيطةٍ كالحركة والامتداد.²² بناءً على ذلك، تكون فكرة الكمّيّ باطلةً لأنّ الأفكار المهمة قد جُمعت فيها بشكلٍ لامعقولٍ «unintelligible».²³ إذن يمكن القول أنّها ليست مهمةً فحسب بل إنّها سخيضةٌ أيضًا،²⁴ لهذا السّبب ليس الأمر مفاجئًا أنّ ترى سبينوزا يقرّ بأنّ «طبيعة الكمّيّ تشير أنّ وجوده سيكون تناقضًا» (TIE § 54; G II, 20). وينطبق الأمر في الإطار نفسه على الفكر البشريّ حيث حينما نكوّن فكرةً عن ماهيّته فمن المستحيل التّفكير في فكرٍ على أنّه مربعٌ (TIE § 59; G II, 23).

وكما يُظهر المثل المذكور أعلاه أنّ فكرتنا حول الكرة صحيحةٌ: يمكن تحليل موضوعها إلى أشياء أو أجزاء بسيطةٍ حيث نستطيع امتلاك أفكارٍ واضحةٍ و متميّزةٍ عنها والتي يمكن بناء كرةٍ منها تبعًا «للنظام المناسب». وعندما تحدث عملية البناء هذه، يستحضر سبينوزا لاحقًا «سلسلةً من الأشياء الثابتة والأزليّة» (TIE §

¹⁹ كما يلاحظ «ماريون» (Marion 1994, 144n25) أنّ ديكارت القواعد غالبًا ما يشير إلى مسار التّفكير غير المقاطع. وأعتبر أنّه من المرجّح أنّ يكون هذا أحد أسباب اختيار سبينوزا لهذا اللفظ.

²⁰ انظر أيضًا (TIE § 62, 65; G II, 24, 25).

²¹ ويضع ديكارت في حوارٍ مع بورمان «conversation with Burman» الفكرة نفسها، فيقول: «على الرّغم أنّه باستطاعتنا تخيل بوضوح تامّ رأسٍ أسدٍ موصولاً بجسمٍ شاةٍ أو ما شابهها، فلا يستتبع ذلك أنّها موجودة، إذ لآتنا لا ندرّك بوضوح الصّلة التي تجمع الأجزاء معًا، إذا ما جاز التعبير» (CSMK, 343-44: التأكيد مضافاً).

²² انظر (TIE §§ 63-64; G II, 24-25).

²³ أعتقد أنّ سبينوزا يستطيع أيضًا على إثر هذه الأسطر الإجابة على تحدّي بيار بايل «Pierre Bayle» (1965, 317-18; 320-23) الكلاسيكيّ أنّ ليس لدى سبينوزا مصادر لإنكار إمكانية وجود أشياء كالشياطين، والأشباح، وجهنّم. للمزيد حول هذا الموضوع انظر (Popkin 1979, 247).

²⁴ انظر (TIE § 61; G II, 24).





36, G II, 100). ونظرًا إلى أنّ هذه العملية البنائية تُنتج شيئًا ذا ماهيةً محدّدةً فباستطاعتنا تفهّم قول سبينوزا في أنّ الأشياء الفريدة «تعتمد بشكلٍ وثيقٍ وجوهريٍّ (إذا ما جاز التعبير)، على الأشياء الثابتة التي لا يمكن أن توجد أو أن تُتصوّر من دونها» (TIE § 101; G II, 37). بذلك يستطيع الفكر أن يكون فكرةً صحيحةً عن ماهية الكرة، وبحسب مصطلحات سبينوزا إنّها حقيقةٌ أزليّةٌ (TIE § 54; G II, 20). لهذا السبب يصحّ عبارته المعروفة،

إذا تصوّر أحد المهندسين بناءً منتظمًا، فعلى الرّغم من أنّ بناءً كهذا لم يوجد بعد، وربّما لن يوجد أبدًا، فسيبقى التّفكير القائم حوله صحيحًا، لأنّ التّفكير يبقى نفسه سواءً أكان البناء موجودًا أم لم يكن.²⁵ (TIE § 69; G II, 26)

بذلك اكتسبت أفضليةً منهجيةً محوريةً مفادها أنّ التّفكير في فكرةٍ صحيحةٍ قد بين لنا ما تكونه صحّة فكرةٍ، كما أعطانا معايير الحقيقة (أو أمارتها «mark»)، وتاليًا أظهر لنا ما يكونه الوضوح والتّميّز فعلاً. إن يستطيع الفكر (1) تشريح «dismantle» (تحليل) موضوع الفكرة إلى أبسط مكوناتها و(2) بناء (تركيب) موضوع الفكرة من هذه المكونات، فالفكرة واضحةٌ ومتميّزةٌ وتاليًا صحيحةٌ.²⁶ يقوم هذا المفهوم على الرّأي القائل بأنّ لدينا ولوجًا مباشرًا في أساس الأشياء الجسمانيّة جميعها، أي لدينا ولوجًا في الامتداد أو المكان، وأنّ علم الهندسة قد كشف المبادئ التي تُبنى بوساطتها الأشياء من الامتداد (وتاليًا يكشف ما يكون صحيحًا بشأن الامتداد)، لهذا السبب نستطيع من خلال التّركيز على الفكرة اكتشاف إن تكن صحيحةً أم لا.

يجب الاعتراف أنّ هذا المفهوم عن الحقيقة ليس سهلاً كي نتلقّفه، لأنّه حتّمًا يقرب المسافة بين الفكرة وموضوعها، بمعنى أنّه يعرفهما، وذلك على نحوٍ يصعب علينا توفيقه مع ميلنا إلى اعتبار الحقيقة تطابقًا بين الأفكار (الجوّانيّة) والموضوعات (البرانيّة). لكنّ سبينوزا ليس وحيدًا في موقفه، بل على العكس، وربّما بشكلٍ مفاجئٍ تتماشى نظريّة الحقيقة عنده مع نظريّة ديكارْت ولايبنيّز «Leibniz». يتحدّث ديكارْت في التأمّل الخامس (CSM II, 44-45) عن «الطبائع الصّحيحة والثّابتة»، كمثّل المثلث، حيث «يمكن برهنة العديد من السّمات المتنوّعة فيه»، ما يدلّ بحسب الفيلسوف على أنّ تلك الطبائع «لم يخترعها» المتأمّل؛ وعلى الرّغم من أنّ الأفكار التي تحتوي على مثيلات هذه الطبائع «قد لا توجد خارج» فكر المتأمّل «فلا يمكن تسميتها عدّمًا». وهذا هو الأمر الذي أدّى إلى نشوء النّقاش الذي لا يزال دائرًا حول المكانة الأنطولوجيّة للطبائع الصّحيحة والثّابتة.²⁷ وقد يبدو موقف سبينوزا مشابهًا إلى حدٍّ ملحوظٍ بموقف لايبنيّز الذي لطالما اعتُبرت نظريّة الحقيقة التّصوريّة الاحتماليّة عنده محيرةً. إذ بالنّسبة لهذه النظريّة، كما يصوغ الأمر روبرت

²⁵ انظر أيضًا (Ep9(c, 194)) حيث يشرح سبينوزا أنّه يمكن لتعريفٍ أن يكون محكمًا حتّى في حال لم يوجد موضوعه خارج العقل.

²⁶ انظر أعلاه الحاشية 18. كان قد سبق ليواكيم (Joachim 1940, 95) أن سلّط الضوء على ما أسماه التّحليل و«الاستنباط»؛ ومؤخرًا قدّم سانجاكومو (Sangiaco 2015, 348) نقاشًا موجزًا حول تحليل الأفكار المركّبة إلى أفكارٍ بسيطة، في حين أنّ موريسون (Morrison 2015, 75) يلاحظ أنّ سبينوزا ملتزمٌ بفكرة أنّ الأفكار المركّبة التامة تُستنبط من الأفكار البسيطة (انظر أدناه الحاشية 30). لكنني لم أستطع العثور على معالجةٍ متكاملةٍ للموضوع تركز على دمج التّحليل والتّركيب، وهو الطّرح الذي يقدّمه هذا التّأويل بوصفه عماد نظريّة الحقيقة عند سبينوزا الشّاب.

²⁷ انظر مثلاً (Cunning 2003; Doney 2005; Carriero 2009, 280-304).





أدمز «Robert Adams» (1994,66)، «لا تعتمد الحقيقة أو البُطلان سوى على البنية المنطقية للقضية وعلى البنية المنطقية الداخلية لمفاهيمها. في هذا الإطار ليست الحقيقة سمةً دلاليةً للقضايا إنما هي سمةٌ تركيبيةٌ محضةٌ.» في المقطع الثاني سأحاول تسليط بعض الضوء على هذا المسألة المهمة والصعبة في الوقت عينه، وذلك عبر توضيح، على قدر ما أمكن، موقف سبينوزا منها ومن العلاقة بين الميزات «الداخلية» و«الخارجية» للأفكار.

قبل الماضي قدمًا لا بد من ذكر أنه ثمة أكثر من ماهية واحدة متعلقة بشيء مركّب،²⁸ أي ثمة مجموعة من الميزات التي تصحب الشيء بحكم الضرورة، وذلك من دون أن تؤلفه. عندما نتعامل مع شيء أصيل (ومحدّد بإحكام)، نستطيع عقلنا استنتاج هذه الميزات كلّها وتكوين تصوّر عامّ عن كينونة الشيء، وهو تصوّر تنسجم فيه ميزات موضوعه المختلفة كلّها مع بعضها، نابعةً من مصدرٍ مشتركٍ بالضرورة.²⁹ ولصيغة الأفكار في مصطلحاتٍ أكثر تقنيةً، ثمة بنية ماهية/سمةٌ محددةٌ. وفي سياق كلامه حول مثل الدائرة يقول سبينوزا أنه بعد تعريفنا إيّاها يمكن استنباط سماتها كلّها من التعريف، نحو «الخطوط كلّها المرسومة من المحور باتجاه المحيط متساوية» (TIE § 96; G II, 35).³⁰ إذن لا يمكن الكلام فقط عن طريقة توليد الشيء المركّب من بعض الأشياء البسيطة بل أيضًا عمّا يمتلك من تأثيراتٍ أو سماتٍ وفق ماهيته. إنّ النتيجة النهائية تشكّل خريطةً طريقٍ واضحةً و متميّزةً أو شكلاً تتخذه الكينونة. يساعدنا هذا كلّه على فهم سبب مزعم سبينوزا أنّ «الفكرة الصحيحة متميّزة عن الفكرة الباطلة ليس فقط بوسمها الخارجي بل بوسمها الداخلي أيضًا» (TIE § 69; G II, 26). إنّ مفهوم الوسم الداخلي هو حتمًا أحد أعسر الأمور على الفهم في إيستمولوجيا سبينوزا.³¹ لكننا الآن في موقفٍ يسمح لنا بمعرفة مقصد الأخير بذلك، أقلّه في إطار الأشياء الممتدة: إنّ الوسم الداخلي للفكرة الصحيحة عن الشيء الممتد هو الوضوح والتّميّز المرتبطان بميزات الشيء الهندسية.³²

²⁸ قارن جملة «الأشياء الكثيرة التي يحتويها الشيء الواحد» (TIE § 63; G II, 24).

²⁹ قارن (E3p5).

³⁰ كما ذكرنا سابقًا أعلاه (في الحاشية 26) أنّ موريسون (Morrison 2015, 75) يشدّد على استنباط الأفكار المركّبة من الأفكار البسيطة؛ ولكن تماشيًا مع استراتيجيته التأويلية العامة فإنّ تركيز موريسون ينصبّ هنا على الأفكار التي تكونها قدرة العقل بدلاً من الإدراك الحسيّ. ونظرًا إلى أنّ معيار سبينوزا الثاني الذي ينصّ على أنه لا بدّ من أن تُستنبط السمات (الضرورية) من التعريف ليكون تعريفًا محكمًا، أجد الأمر غريبًا عندما يصرّح موريسون أنّ «الفكرة الصحيحة عن س تمثّل ماهية س، وقد تمثّل أيضًا سمات س» (Morrison 2015, 73): التأكيد مضافًا).

³¹ يقدّم دون غاريت «Don Gerrett» (1986, 1990) أشهر معالجة لهذا الموضوع إلى حدّ الآن، حيث يشدّد أنّ الحقيقة عند سبينوزا ولا يبنيتز هي خاصيةٌ داخليةٌ للأفكار الصحيحة.

³² ويترتب على ذلك أنه إذا لم يستطع الفكر اكتساب هذا النوع من الوضوح والتّميّز فستكون الفكرة باطلة؛ وأعتقد أنّ هذا هو موقف سبينوزا الشاب الذي أركّز عليه هنا. ولكن من الجدير ذكره أنّ الإطار الوجداني «monistic» لكتاب علم الأخلاق يدفعه إلى إعادة النّظر في هذه الأمور، كما في (E2p47s (G II, 134)) حيث يقول «أسلم بأنّ ليس من أحدٍ مخدوعٍ طالما إنّه مدركٌ، أي أسلم أنّ تخيلات الفكر إذ ما دُرست في ذاتها فهي لا تتضمن الخطأ» من البديهي أنّ هذا المزعم قائمٌ على (E2p33) التي تقول بأنّ «ليس ثمة من أمرٍ إيجابيّ في الأفكار لنقول بمقتضاه أنّها باطلة»، لأنّ البطلان لا يمكن أن يكون داخل أو خارج وحدانية الله أو الطبيعة. بمعنى آخر إنّ فلسفة سبينوزا الناضجة تغيّر في المنظور بعض الشيء؛ ولكن، على الرّغم من ذلك بحسب فهمي للمقطع الأساس علم الأخلاق (E2p47s; G II, 134) فإنّ سبينوزا لا ينكر أنّ الفكر يمكنه أن





4. جواب سبينوزا على الشكّاك

إننا الآن في موقفٍ يسمح لنا بتفحص كيف أجاب سبينوزا في رسالته على الشكّاك. إذ بعد تفسير سبينوزا طريقة عمل فكرنا المختلفة حينما يتأمل في الأفكار الصحيحة والأفكار الباطلة يؤكد لنا: «لذا لا ينبغي علينا الخوف من أننا نخلق شيئاً في حال أدركناه واضحاً و متميزاً» (TIE § 62; G II, 24). ما يعنيه سبينوزا بكلامه هذا أنه إذا يمكن تلقّف فكرةٍ بكلّ وضوحٍ وتمييزٍ فالفكرة تكون صحيحةً، ويكون موضوعها بالضرورة ما كنا قد اعتبرناه قائماً.³³ فإذا اعتبر ديكارت أنّ الوضوح والتمييز هما أمارتا الحقيقة، فيبدو عند سبينوزا أنّ الوضوح والتمييز والحقيقة مترابطون ترابطاً، أي ليس ثمة من فاصلٍ ليُسقط بينهم.

عموماً يبدو أنّ سبينوزا مصمّمٌ إلى حدٍّ معيّنٍ على اعتبار الشكوكيّة ضرباً من السُفسطة الكلاميّة «Verbal sophistry»³⁴ حيث يزول سحرها سريعاً حينما يتمّ تفحص الأشياء بدقّة، وهو ما يؤدي مثلاً إلى إظهار أنّ الألفاظ المترابطة اعتبارياً أدت إلى نشوء فكرةٍ مهمّةٍ (نحو، فكرة روحٍ مرتبّةٍ) (TIE § 58; G II, 22). فعلاً إنّ منهج سبينوزا في التمييز بين الأفكار الصحيحة عن الأفكار الباطلة يشكّل مدامك جوابه على الشكّاك: «ينشأ الشكّ دائماً من واقعة تفحص الأشياء من دون نظام» (TIE § 80; G II, 30). إن نستطيع القول عن موضوع فكرةٍ (أ) أية أشياء بسيطةٍ تولّفه، (ب) كيف يمكن بناؤه من العناصر البسيطة، و(ج) ما هي السمات التي يملكها بعد تكوينه، فسيكون الشكّ في الموضوع بلا فائدةٍ. ربّما يُمكن القول (على الطريقة الكنتيّة) أنّ الموضوع كونه مؤلّفٌ من بعض المبادئ الهندسيّة الواضحة والتمييزيّة القابلة للملاحظة هو أمرٌ أساسيٌّ لكونه موضوعاً خارجياً، وأي تحدّي شكوكيٍّ إضافيّ ليس سوى محاولةٍ مضلّلةٍ لعدم تلقّفها الطّبيعة الحقّة لكونه شيئاً متناهياً ممتدّاً.

فعلاً أعتقد أنّه من المفيد مقارنة تشديد سبينوزا على أهميّة الهندسة في لحظ بنية الأشياء الجسمانيّة، خصوصاً ما قد يُسمّى الانتقال التركيبي «synthetic move» من ماهيّة إلى سماتٍ،³⁵ بكنت في الإستطيقا الترانسندناليّة حيث يزعم بأنّ «الهندسة علمٌ يحدّد سمات المكان تركيبياً وقبلياً» (KrVB40).³⁶ حتّى إنّ كنت يُصرّح كاتباً «إذن المبادئ الهندسيّة كلّها (على سبيل المثال، تكون زاويتا المثلث المجتمعان أكبر من زاويته الثالثة) ... تُستمدّ قبلياً من الحدس بيقينٍ برهانيّ» (KrVA25/B39).³⁷ وعليّ أن أُشير إلى أنّ هذا

يدرك «أنّ فكرة حصانٍ مجنّحٍ» هي غير تامّةٍ حتّى حينما ليس ثمة من أفكارٍ أخرى تستبعد «وجود الحصان نفسه». وأرى أنّه لن يكشف عن بطلان الفكرة سوى إخفاها في تكوين فكرةٍ واضحةٍ و متميزّةٍ عن موضوعها، خصوصاً أنّ سبينوزا يشدّد أيضاً في علم الأخلاق على «الوسوم الداخليّة للفكرة الصحيحة» (E2d4؛ انظر أيضاً الحاشية 44). سأناقش أدناه العلاقة القائمة بين منهجيّة الرسالة وأنطولوجيا علم الأخلاق.³³ انظر بخاصّةٍ (TIE § 65; G II, 25). قارن حجة ديلا روكا (Della Rocca 2007) حول استحالة فصل المعقوليّة الذهنيّة والحقيقة.

³⁴ انظر (TIE § 77; G II, 29).

³⁵ حول هذا الموضوع انظر (Carriero 2009, 298-99, 325, 472).

³⁶ حول معانيّة مشابهة للعلاقة بين ديكارت وكنت، انظر (Carriero 2009, 292-93, 298-301). ولا بدّ من الإشارة أيضاً إلى أنّ نيومان ونيلسون (Newman and Nelson 1999, 395) يحاججان باقناعٍ على حدّ علمي أنّ ديكارت في موقفه من الشكوكيّة هيّا الطريق أمام كنت.

³⁷ طبعاً تختلف الدوافع الفلسفيّة بين كنت وسبينوزا؛ ليس سبينوزا مثاليّاً ترانسندناليّاً «Transcendental idealist»، إذ ما يحقّز موقفه هي الإستمولوجيا المستوحاة من الهندسة (للمزيد حول هذه المسألة انظر أدناه). ولكنهما يتفقان حول أهميّة مبادئ الهندسة في تأليف الأشياء





المزعم متعلّق بالتأليف الجوّانيّ للموضوعات، وهو ليس ذلك المزعم المشهور القائل أنّه من دون المكان لا يمكن للموضوعات أن تكونَ في أماكن مختلفة. لذا ما يمكن قوله عن سبينوزا ينطبق نفسه على كُنْتُ، أي كون الشيء محدّدًا بمبادئ هندسيّة هو أمرٌ أساسيٌّ لكونه شيئًا (موضوعًا) ممتدًا (خارجيًا)،³⁸ أي بتعبير سبينوزا إنّهُ «صورة الحق» (TIE§ 69; G II, 26) عن الأشياء المكانية.³⁹ إنّ سبينوزا مقتنعٌ أنّه إذا أنكر أحدهم معرفته بالحقيقة، حتّى بعد تلقّنه هذه الصّورة عن الحقّ، «فإنّما سيقول بعكس ضميره» (TIE§ 47; G II, 18) إنّما سيكون مثل أناسٍ متضرّرين استعرافيًا لدرجة أنّه «إذا برهن لهم المرء شيئًا تراهم لا يعلمون إذا كانت الحجّة برهانًا أم لم تكن»، «فينتهي بهم الأمر مسلّمين بالأشياء أو منكرين بها بشكلٍ كاملٍ عشوائيًا» (TIE § 48; G II, 18).

بهذه الطريقة يحتاج سبينوزا لوضع نظريّة معياريّة للحقيقة لا تتضمن الله. حتمًا لدى الله دورٌ محوريٌّ يلعبه في إبستمولوجيا سبينوزا: لأنّه كي تكون معرفتنا كاملةً لا بدّ أن يكون موضوعها كائنًا أكثر كمالًا، أي الله أو الطّبيعة، وما يستتبع من ماهيّة الله. في هذا السّياق إنّ تكوين الأفكار يتّبع تحديدًا نظام الأشياء النّابعة من صلب الواقع.⁴⁰ وإنّ أصرّ أحدهم على أنّ إلهاً مخادعًا يستطيع أن يضلّلنا، فأعتقد أنّ جواب سبينوزا سيكون أنّ منهجه في تقدير الأفكار يكشف أنّ هذا الاعتراض مبنيٌّ على التباسٍ: إذا أخذنا بعين الاعتبار فكرةً محكمةً عن الله فسنلاحظ أنّه ليس باستطاعته أن يكون مخادعًا مثلما لا يساوي مجموع زوايا المثلث الدّاخلية شيئًا آخر غير الزّاويتين القائمتين (TIE § 79; G II, 35).⁴¹ هكذا تُكتسب الفكرة الصّحيحة عن صدقيّة الله بوساطة المنهج نفسه، كما في حالة اكتساب الفكرة الصّحيحة عن مجموع زوايا

الممتدّة. وفي الواقع أفضل أن أقول بأنّ كُنْتُ يعقلن الحدس الحسيّ (وذلك عبر محاججته أنّ عليه امتلاك صورة ذات هندسيّة محدّدة قبليًا) وأنّ سبينوزا يجعل الامتداد مثالًا.

³⁸ وكما يلاحظ فريديريك بايزر: «إنّ تفسير كُنْتُ الثالث والأخير للواقع التجريبيّ للمكان هو رياضيٌّ أو هندسيٌّ. وتبعًا لهذا التفسير لدى المكان واقعٌ تجريبيٌّ لأنّ المثاليّة الترانسندناليّة تُظهر أنّ بديهيات ومبرهنات الهندسة صحيحةٌ بالضرورة حينما يتعلّق الأمر بالظّاهرات. فإنّ تكن القضايا صحيحةً كليًا وبالضرورة كقولك "يقع خطٌّ مستقيمٌ واحدٌ بين نقطتين" أو "لا يمكن حصر مساحةٍ داخل خطّين مستقيمين"، إذن ما يظهر في المكان لا يمكن أن يكون إدراغًا اعتباطيًا أو خاصًا، بل وهما من المخيلة. وعضوًا عن ذلك ستكون هذه الظّاهرات حقيقيّةً بحسب بنيتها الكليّة والضروريّة» (Beiser 2002, 57: التأكيد الأخير مضافًا).

³⁹ تماشيًا مع هذا المسار يصرّح كُنْتُ أنّ الأشياء الخارجيّة موجودةٌ بدهيًّا تمامًا كما هو موجودٌ بنفسه، انظر (KrV1998, A370-71)، ويقترح سبينوزا أقلّه أنّ واقعة أنّ الأشياء مؤلّفةٌ على نحوٍ معيّن، هو أمرٌ جليٌّ تمامًا كواقعة أنّه كائنٌ مفكّرٌ، انظر بخاصّةٍ (TIE§ 58; G II, 58).

⁴⁰ انظر ((TIE§§ 39-42, 75, 91 (G II, 16-17, 28-29, 34))؛ كما خذ بعين الاعتبار القضية السّابعة من كتاب علم الأخلاق (E2p7).

⁴¹ قارن (Garrett 1986, 67, 70-71; Mason 1993, 555-56, 561, 563). انظر أيضًا التمهيد لكتاب مبادئ الفلسفة «Principles of Philosophy» لديكارت (G I, 147-49). وعلى الرّغم من أنّ جواب سبينوزا على الشكّ لا يعتمد على الله، تدكّر أنّ الأخير مقتنعٌ اقتناعًا بامتلاكه فكرةً واضحةً ومتميّزةً عن الله الذي يستتبعه الكثير من السّمات اللّامتناهية بالضرورة من طبيعته؛ انظر (Ep56 and Ep76 (G IV, 261, 319-20)). ولراجعة الخلفيّة الديكارتية لهذا الطّرح انظر في التأمّل الخامس (CSM II, 44-47). ولمقاربةٍ تعتبر ديكارت تماشيًا في تفكيره مع تفكير سبينوزا في هذا الإطار، انظر (Newman and Nelson 1999, esp. 384).





المثلث الداخليّة، أو في تساوي الخطوط المرسومة من محور الدائرة نحو محيطها؛ فإنّ اعتماديّة المنهج لا تستند على الله.⁴²

في الواقع أعتقد أنّ مقاربة سبينوزا المستوحاة من الهندسة تدفعه إلى اتّخاذ موقفٍ مثاليّ. إذ عبر تركيز عقلنا على الوسوم الداخليّة للأفكار وحدها (وأشهرها الوضوح والتميّز المرتبطان بالميزات الهندسيّة للموضوع الممتدّ) نستطيع التّوصّل إلى حقيقةٍ لا يمكن الشكّ فيها. ولكنّ هذا لا يعني بالضرّورة أنّه ثمة تحوّلٌ جوهريٌّ عند سبينوزا من آراء في الرّسالة إلى واقعيتها في علم الأخلاق، إنّما الأوّل هو عملٌ منهجيٌّ علنًا، في حين أنّ الثاني يفسّر ما يدعوه سبينوزا «فلسفته». حتّمًا يعتبر الفيلسوف أنّه تبعًا لأهداف عمله الأوّل يكفي برهان أنّ ليس ثمة من سببٍ يدعو للخوف من أنّ الأفكار المكتسبة في مساعينا العقلانيّة، أي الأفكار التي تحتوي على الوسم الداخليّ للحقيقة، ستكون باطلّة بسببٍ إليه مخادع.

ولكن قد لا يقتنع الشكّك بهذا الجواب، فيعترض كما اعترض بعضهم على كُنْت بأنّ سبينوزا لم يتفادَ فعلاً التّهمة الشكوكيّة، لأنّه عبر التمسك بما هو مكشوفٌ للعقل، لم يبرهن سبينوزا لنا أنّ أفكارنا مهما تكن خصائصها الداخليّة تتطابق فعلاً مع أيّ شيءٍ خارجٍ عنها. فقد لا تزال تُطرح أسئلة: ما هي الضّمانة التي يقول بمقتضاها سبينوزا أنّ الأفكار الصّحيحة وفق بعض الوسوم الداخليّة ممكنةٌ وفعليّةٌ أيضًا، لدرجة أنّ لديها وسومًا خارجيّةً، أي ارتباطاتٍ بالموضوعات التي ليست مجرد سُبُلٍ يتمّ تعديل عقلنا فيها؟ وعمومًا ما الذي يؤكّد لنا أنّه ثمة شيءٌ يُدعى عالمًا خارجيًا في الأساس؟ ولا بدّ من الإشارة أنّه حتّى في الرّسالة (69S)، لا ينكر سبينوزا أنّ لدى الأفكار الصّحيحة وسومًا خارجيّةً أيضًا، إذ إنّ خلاصة الأمر أنّ صحّة فكرةٍ يلحظها وسومها الداخليّ أساسًا أو حصراً (حكم). يشكّل الوسم الداخليّ الميزة الرّئيسة للقضيّة الصّحيحة،⁴³ لكنّ ثمة ميزةً خارجيّةً أيضًا.⁴⁴

أعتقد أنّ سبينوزا لكي يقدّم تفسيرًا حول هذه الميزة الخارجيّة، سيلجأ إلى فلسفته ويحوّر تفسير الحقيقة بكامله. ولكن كيف يرتبط منهج الرّسالة بفلسفة علم الأخلاق؟ نظرًا إلى أنّ سبينوزا لا يجيب بشيءٍ على هذا السّؤال المألّزمة صعوبته فلا يمكن لأيّ جوابٍ أن يتجنّب التّخمين. لكنني أميل إلى المقترح الآتي:⁴⁵ ربّما

⁴² قارن جملة: «لا يحصر التّوصّل إلى هذا البرهان [أي برهانُ المزعّم القائل أنّ معرفتنا كلّها تعتمد على معرفة الله] عبر استعمال أفكارنا الواضحة والتميّزة فقط.... ويختم سبينوزا بوساطة أفكاره الواضحة والتميّزة مستنتجًا أنّ أفكاره الواضحة والتميّزة هي فكرةٌ عقليّةٌ لامتناهٍ» (Schneider 2016, 596-97).

⁴³ وكما يصوغ الأمر شنايدر (Schneider 2016, 591): «في المستوى الأكثر تأسيسًا تُميّز الفكرة الصّحيحة عن الخيال على أساس ميزاتها الداخليّة الخاصّة.» وفي الإطار نفسه يقول موريسون (Morrison 2015, 70): «الميزات الحصريّة للفكرة الصّحيحة س تكون داخليّةٌ لدى الفكر حيث تكون هذه الفكرة صحيحةً.» وأظنّ أنّ الإشارة إلى الميزات الداخليّة للفكر تُشكّل أمرًا مهمًّا في قراءة موريسون لسبينوزا، وهي خطوةٌ لست مستعدًّا لاتّخاذها؛ انظر الحاشية 30 أعلاه.

⁴⁴ وثمة تعريفٌ مهمٌّ من علم الأخلاق يحاكي هذه الفكرة: «أقصد بالفكرة التامة تلك الفكرة التي إذا دُرست في ذاتها من دون الموضوع فهي تمتلك السّمات كلّها أو تمتلك الوسوم الداخليّة للفكرة الصّحيحة. وأستعمل لفظة "الداخليّة" استبعادًا للفظة "الخارجيّة"، أي للتطابق بين الفكرة وموضوعها» (E2d4؛ انظر أيضًا: Ep9; C, 194). على الرّغم من هذا لا أوافق ماريون (Marion 1994, 149) الذي يحتاج بأنّ علم الأخلاق تخلّى عن منهج الرّسالة حتّى أنّه حوّر.

⁴⁵ أود أن أشكر حكّمًا مجهولًا لإشارته إلى هذه المسألة المهمّة، وبذلك لفت نظري إلى إعادة مراجعة وتدقيق موقعي من المسألة.





قد يعتبر سبينوزا أنه بعد تطوير المنهج المذكور أعلاه، عبر لتبيين طريقة اكتساب الأفكار التامة عن التمييزات الأنطولوجية الأساسية بعد تبين طريقة اكتسابها عن ماهيات الأشياء، نستطيع كشف نقطة الانطلاق الواضحة والمتميزة للفلسفة أي تعريفات وبيدهيات علم الأخلاق (بخاصة في جزئه الاستهلاكي).⁴⁶ في النهاية لقد شقت دربًا من الإمكانية إلى الفعلية، وهو درب لا يبدأ مع فكرة الله بل مع التمييزات التصورية الأساسية في الأنطولوجيا التي تبنى عليها المزاعم المرتبطة بالموجودات.⁴⁷ وأهم تلك المزاعم هو ذلك القائل بأنه يوجد بالضرورة جوهرٌ مسببٌ ذاته «و لا امتناهِ كلياً بحيث ليس ثمة من شيءٍ خارجه (E1p15)، أي جوهرٌ يولد بالضرورة وفق ماهيته عددًا لامتناهياً من الأشياء المتناهية بوصفها سماته (E1p16). أما في ما يخص الامتداد فيمكن الزعم أن الاحتمالات الأصلية التي يمكن وصفها هندسيًا يحققها بالضرورة صلب الله أو الطبيعة، وتالياً باستطاعة سبينوزا القول عنها أن «ما يحتويه العقل موضوعياً لا بد له أن يكون موجوداً بالضرورة في الطبيعة» (E1p30d).⁴⁸ هكذا لا بد من أنطولوجيا متينة لتفسير سبب امتلاك الفكرة الصحيحة التي يكتسبها العقل لوسمٍ داخليٍّ ووسمٍ خارجيٍّ.⁴⁹ قد لا يكون ثمة أحدٌ مقتنعاً بأنطولوجيا سبينوزا، لكن الفكرة الأساس خلف أهدافنا تنص على أنه من دون المنهج الصحيح من ضمن عقلانية كعقلانية سبينوزا سنكون تائهين استعرافياً⁵⁰، أي لن نقدر على تلقف الميزات الداخلية الأساسية للأشياء بانتظام، كما لن ينشأ أي برهانٍ حول العالم.

5. الخاتمة

لقد شرحت في هذه الورقة منهج سبينوزا الشاب في لحظ صحّة الأفكار وبطلانها. وأعتقد أن هذا المنهج يمثل أحد أهم المساهمات في الإستمولوجيا الحديثة المبكرة، وهو مساهمة متأثرة كثيراً بديكارت، وبحسب اعتقادي إنها خير خلفٍ له، وذلك عبر تأمينها تفسيراً عقلانياً أكثر تطوراً لطبيعة الأفكار يجمع ما بين التحليل والتّركيب بحداقة. وبناءً على هذا التفسير وما يقدمه من شرحٍ عن الأشياء الجسمانية، فلدى

⁴⁶ والجدير ملاحظته أنّ صمت سبينوزا حول الطريقة التي توصل من خلالها إلى مبادئه الأولى يتوافق مع زعم هوبز أن «منهج البرهنة بكامله... تركيبياً» (De Corpore 1.6.12; EWI, 80). قارن (Garrett 1986, 86).

⁴⁷ ما ذكّر في E1p7 هو المزعم الأساسي لأنه أول قضية تشير إلى أنّ تعريفات سبينوزا وبيدهياته تدل على أكثر من اعتباراتٍ تصوّرية فارغة، إذ بناءً عليها يمكن برهنة أنه ثمة جوهرٌ موجودٌ بالضرورة.

⁴⁸ أتفق هنا مع غاريت الذي يجادل أنه بحسب ضرورانية سبينوزا «إذا امتلكت الفكرة تماسكاً داخلياً أو "تماً" يكفي لإظهار أن ما تمثله هو /مكانيةٌ أصيلةٌ فستظهر أيضاً أنها فعلية» (Garrett 1991, 213). فعلاً يدافع غاريت بوضوح عن الرأي القائل أن «الضرورانية المنطقية ستوفر لسبينوزا التصالح المتناسك والمتناسب بين تصوّري الصّحة الداخلي والخارجي» (Garrett 1990, 37).

⁴⁹ على الرّغم من صعوبة تحديد موقف سبينوزا في ضمن الإطار المعاصر الذي شكّله النقاش الدائر بين نظريات تماسك الحقيقة ونظريات تطابق الحقيقة (لشرح مفيدٍ حول هذه الصّعوبة انظر بخاصة 15، Curley 1994)، في هذه المرحلة يمكن الإشارة إلى أنّ الوسم الداخلي للفكرة الصحيحة يُشكّل ميزة «تماسكها الداخلي»، بينما يتوافق فهم سبينوزا لمفهوم الوسم الخارجي مع مفهوم التّطابق. بيد أنه يجب الانتباه إلى أنّ «التماسك» المتضمّن في الوسم الداخلي عند سبينوزا هو ذو نوعٍ خاص، وأنّ «التّطابق» يتضمّن نوعاً خاصاً من النظرية الأنطولوجية كما ينبع منها. ولمراجعة طرحٍ بديلٍ لسبينوزا بوصفه منظرًا للتماسك والتّطابق حيث بالنسبة له إنّ التّطابق بين الفكرة وبين موضوعها المادي يؤمته التّوازي المذكور في (E2p7) بشكلٍ أساسي، انظر (Perler 2018).

⁵⁰ أستوحى هنا من الطريقة التي حدّد فيها كاريو (Carriero 2009, 280-300) أسباب ديكارت لإدخاله مفهوم الطّباع الصحيحة والثابتة. ويتفق سبينوزا وديكارت على أنه لا بد من أن يكون ثمة دربٌ استعرافيٌّ للحقيقة لا يعتمد على التجربة الحسية.





سبينوزا جوابٌ متكلّفٌ على الشكّاء؛ وإذا بدت أحياناً هذه المعالجة للشكوكيّة موجزةً، متسرّعةً، أو منتقصةً فالسبب الواضح يعود إلى أنّ سبينوزا نفسه مقتنعٌ بالمنهج الذي يطرحه.

الشكر والتقدير:

أودّ أن أشكر خصوصاً أرتوريبو «Arto Repo» لملاحظاته ونقاشاته المفيدة حول مواضيع هذه الورقة؛ كما أودّ أن أشكر بيتر ميردل «Peter Myrdal» على بعض النقاط التوضيحية. كما إنني ممتنٌّ لستيفن شميت «Stephan Shmid» وجاستن ستاينبرغ «Justin Steinberg» لتعليقاتهما الشاملة حول نسخة أوليّة من هذه الورقة، كذلك إنني ممتنٌّ للحكّمين المجهولين على نقدهما البناء ولرئيس التحرير على الاقتراحات اللسانية الممتازة. أودّ أيضاً أن أشكر جماهير جامعة توركو «University of Turku»، وجامعة أوروبّا الوسطى «Central European University»، وجامعة غنت «Ghent University».

الدعم التّمويلي: إنّ البحث الذي جرى لهذه الورقة مولته أكاديمية فنلندا (مشروع الرّقم 275583). فالتيري فيليانن: «Valtteri Viljanen» هو باحثٌ عضوٌ في أكاديمية فنلندا في جامعة توركو. له العديد من المقالات حول سبينوزا وكتابٌ بعنوان هندسة القوة عند سبينوزا المنشور سنة 2011. (*Spinoza's Geometry of Power*, Cambridge University Press: 2011)





قائمة المختصرات

C = Spinoza, Benedictus de. 1985. *The Collected Works of Spinoza* Vol. I. Translated and edited by Edwin Curley. Princeton: Princeton University Press.

CSM = Descartes, René. 1985. *The Philosophical Writings of Descartes* I–II. Translated by John Cottingham, Robert Stoothoff, and Dugald Murdoch. Cambridge: Cambridge University Press.

CSMK = Descartes, René. 1991. *The Philosophical Writings of Descartes III. The Correspondence*. Translated by John Cottingham, Robert Stoothoff, Dugald Murdoch, and Anthony Kenny. Cambridge: Cambridge University Press.

EW = Hobbes, Thomas. 1839–45. *The English Works of Thomas Hobbes* I–XI. Edited by William Molesworth. London: John Bohn.

G = Spinoza, Benedictus de. 1925. *Spinoza Opera* I–IV. Edited by Carl Gebhardt. Heidelberg: Carl Winter.

KrV = Kant, Immanuel. 1998. *Critique of Pure Reason*. Translated and edited by Paul Guyer and Allen W. Wood. Cambridge: Cambridge University Press.

SW = Thomas Aquinas. 1965. *Selected Writings of St. Thomas Aquinas*. Translated by Robert P. Goodwin. Upper Saddle River: Prentice Hall.





ثبت المراجع

- Adams, Robert Merrihew. 1994. *Leibniz: Determinist, Theist, Idealist*. Oxford: Oxford University Press.
- Bayle, Pierre. 1965. *Historical and Critical Dictionary: Selections*. Translated by Richard H. Popkin. Indianapolis: Bobbs-Merrill.
- Beiser, Frederick C. 2002. *German Idealism: The Struggle against Subjectivism, 1781–1801*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- Bennett, Jonathan. 1984. *A Study of Spinoza's Ethics*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Bolton, Martha Brandt. 1985. "Spinoza on Cartesian Doubt." *Noûs* 19 (3): 379–95.
- Carriero, John. 2009. *Between Two Worlds: A Reading of Descartes's Meditations*. Princeton: Princeton University Press.
- Cunning, David. 2003. "True and Immutable Natures and Epistemic Progress in Descartes's Meditations." *British Journal for the History of Philosophy* 11(2): 235–48.
- Curley, Edwin. 1988. *Behind the Geometrical Method: A Reading of Spinoza's Ethics*. Princeton: Princeton University Press.
- Curley, Edwin. 1994. "Spinoza on Truth." *Australasian Journal of Philosophy* 72 (1): 1–16.
- Della Rocca, Michael. 1996. *Representation and the Mind-Body Problem in Spinoza*. New York: Oxford University Press.
- Della Rocca, Michael. 2007. "Spinoza and the Metaphysics of Scepticism." *Mind* 116 (464): 851–74.
- Doney, Willis. 1971. "Spinoza on Philosophical Skepticism." *The Monist* 55: 617–35.
- Doney, Willis. 2005. "True and Immutable Natures." *British Journal for the History of Philosophy* 13: 131–37.
- Garrett, Don. 1986. "Truth and Ideas of Imagination in the *Tractatus de Intellectus Emendatione*." *Studia Spinozana* 2: 61–92.
- Garrett, Don. 1990. "Truth, Method, and Correspondence in Spinoza and Leibniz." *Studia Spinozana* 6: 13–43.
- Garrett, Don. 1991. "Spinoza's Necessitarianism." In *God and Nature: Spinoza's Metaphysics*, edited by Yirmiyahu Yovel, 191–218. Leiden: E. J. Brill.
- Gueroult, Martial. 1974. *Spinoza II. L'Âme (Éthique, II)*. Paris: Aubier-Montaigne.
- Joachim, Harold H. 1940. *Spinoza's Tractatus de Intellectus Emendatione*. Bristol: Thoemmes.





- Mancosu, Paolo. 1996. *Philosophy of Mathematics and Mathematical Practice in the Seventeenth Century*. New York: Oxford University Press.
- Marion, Jean-Luc. 1994. "Aporias and the Origins of Spinoza's Theory of Adequate Ideas." In *Spinoza on Knowledge and the Human Mind*, edited by Yirmiyahu Yovel, 130–58. Leiden: E. J. Brill.
- Mason, Richard. 1993. "Ignoring the Demon? Spinoza's Way with Doubt." *Journal of the History of Philosophy* 31 (4): 545–64.
- Matheron, Alexandre. 1994. "Ideas of Ideas and Certainty in the *Tractatus Intellectus Emendatione* and in the *Ethics*." In *Spinoza on Knowledge and the Human Mind*, edited by Yirmiyahu Yovel, 83–91. Leiden: E. J. Brill.
- Morrison, John. 2015. "Truth in the *Emendation*." In *The Young Spinoza: A Metaphysician in the Making*, edited by Yitzhak Y. Melamed, 66–91. Oxford: Oxford University Press.
- Nadler, Steven. 1999. *Spinoza: A Life*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Nelson, Alan. 2015. "The Problem of True Ideas in Spinoza's *Treatise on the Emendation of the Intellect*." In *The Young Spinoza: A Metaphysician in the Making*, edited by Yitzhak Y. Melamed, 52–65. Oxford: Oxford University Press.
- Newman, Lex, and Alan Nelson. 1999. "Circumventing the Cartesian Circles." *Noûs* 33 (3): 370–404.
- Parkinson, G. H. R. 1954. *Spinoza's Theory of Knowledge*. Oxford: Oxford University Press.
- Perler, Dominik. 2018. "Spinoza on Skepticism." In *Oxford Handbook of Spinoza*, edited by Michael Della Rocca, 220–39. Oxford: Oxford University Press.
- Popkin, Richard H. 1979. *The History of Scepticism from Erasmus to Spinoza*. Berkeley: University of California Press.
- Sangiaco, Andrea. 2015. "Fixing Descartes: Ethical Intellectualism in Spinoza's Early Writings." *The Southern Journal of Philosophy* 53 (3): 338–61.
- Schneider, Daniel. 2016. "Spinoza's Epistemological Methodism." *Journal of the History of Philosophy* 54 (4): 573–600.
- Viljanen, Valtteri. 2014. "Spinoza on Activity in Sense Perception." In *Active Perception in the History of Philosophy: From Plato to Modern Philosophy*, edited by José Filipe Silva and Mikko Yrjönsuuri, 241–54. Dordrecht: Springer.





Viljanen, Valtteri. 2015. "Spinoza's Essentialism in the Short Treatise." In *The Young Spinoza: A Metaphysician in the Making*, edited by Yitzhak Y. Melamed, 183–95. Oxford: Oxford University Press, 2015.



ثبت المصطلحات

انكليزيّ	عربيّ
A priori	قبليّ
Adequate ideas	الأفكار التّامّة
Affirmation	الإثبات
Analysis	تحليل
Analytic method	منهج تحليليّ
Apodictic certainty	يقين برهانيّ
Appearances	الظواهرات
Cartesian skepticism	الشّكوكيّة الديكارتية
Causal efficacy	الفعاليّة السببيّة
Character/(s)	خاصيّة/ خصائص
Chimera	الكَمير
Clear and distinct ideas	الأفكار الواضحة والمتميّزة
Coherence theory of truth	نظريّة تماسك الحقيقة
Combination	الدّمج
Complex things	الأشياء المركّبة
Complexity	تركيب
Concept	تصوّر
Conceptual containment theory of truth	نظريّة الحقيقة التّصوريّة الاحتوائيّة
Corporeal things	الأشياء الجسمانيّة
Correspondence theory of truth	نظريّة تطابق الحقيقة
Denomination (s)	وسم/ وسوم



Epistemological dogmatism	الإبستمولوجيا الدّوغمائيّة
Epistemology	إبستمولوجيا
Essence	ماهية
Extension	امتداد
Externalist conception	تصوّر خارجانيّ
Extrinsic	خارجيّ
False idea	فكرة باطلة
Falsity	بُطلان
Form	صورة/ شكل
Formal essence	ماهية صوريّة
Galileo-Cartesian nature	التّصوّر الغاليليّ الديكارتّي للطّبيعة
Idea	فكرة
Ideas of imagination	أفكار التخيّل
Imagination	المخيّلة
Inadequate ideas	الأفكار غير التّامّة
Internalist conception	تصوّر داخليّ
Intrinsic	داخليّ
Intuition	حدس
Method	منهج
Mind	فكر/ ذهن
Motion	الحركة
Necessitarianism	الضروريّة
Notion (s)	مفهوم/ مفاهيم





Object (s)	موضوع / موضوعات
Ontology	أنطولوجيا
Perception	إدراك
Predicate	محمول
Principle of sufficient reason	مبدأ العلة الكافية
Property(ies)	سمة / سمات
Reality	الواقع
Reflexive knowledge	معرفة تفكرية
Scepticism	الشكوكية
Semantical property	سمة دلالية
Sense experience	التجربة الحسية
Sense perception	الإدراك الحسي
Separation	الفصل
Shape	شكل
Simple natures	الطبايع البسيطة
Spatial cognition	الاستعراف المكاني
Subject	موضوع
Subrational doubt	شك ما دون العقلائي
Substance	الجوهر
Syntactical property	سمة تركيبية
Synthesis	تركيب
Synthetic method	منهج تركيبى
Transcendental Aesthetic	الإستطيقا الترانسندنتالية





Truth	الحقيقة/الصحة
True and immutable natures	الطَّبايع الصَّحِيحة والثابتة
True idea	الفكرة الصَّحِيحة
Veracity	صدقِيَّة

